وما هي العلاقة بين الاحساس والمعرفة؟

وما هي العناصر التي تدخل في مسألة المعرفة وهي ليست موجودة في الاحساس؟

ومن أين جاءت هذه العناصر واقتحمت عالم الذهن؟

وما هي طريقة عمل المعرفة؟

وما هو المقياس الذي نستطيع بواسطته ان نميّز بين المعرفة الصحيحة والمعرفة الخطأ؟

هذه مجموعة من الأسئلة التي يشكل البحث فيها كتابا مستقلا[1]، ولهذا فنحن لا نستطيع ان ندخل في تفاصيل هذا الموضوع.

ولكن المتيقن ان الاحساس بشيء غير معرفة ذلك الشيء، فالمعرض الواحد يراه الجميع بشكل واحد ولكن افراداً معدودين فقط هم الذين يستطيعون تفسيره، وفي بعض الأحيان يقدمون تفسيرات مختلفه له.

أنواع الرؤى الكونية

إن الرؤية الكونية أو المعرفة الكونية، وبعبارة أخرى تفسير الانسان للكون يكون على ثلاثة انواع، أي انه يمكن استلهامه من ثلاثة منابع:

١ـ العلم.

٢ـ الفلسفة.

٣ـ الدين.

---

(١) ان اول كتاب تغرزه الحوزة العلمية في قم يتناول مسألة «المعرفة في القرآن» هو «دروس من المعارف القرآنية»، وسوف ينشر قريبا باذن الله.

«المؤلف»

اذن فالرؤية الكونية على ثلاثة انواع:

١ـ العلمية.

٢ـ الفلسفية.

٣ـ الدينية.

الرؤية الكونية العلمية

لننظر الآن الى اي حد يستطيع العلم ان يمنحنا البصيرة والرؤية الواضحة.

فالعلم قائم على أساسين: الفرضية، والتجربة.

والعالم عندما يحاول أن يكتشف أو يفسر ظاهرة من الظواهر فهو يفترض بشأنها فرضية ثم يجرِّبها عمليا في المختبر، فاذا ظهرت النتائج مؤيدة لفرضه؛ أصبحت مقبولة على أساس أنها أصل علمي، وتستمر قيمتها العلمية حتى تؤيد التجارب فرضية أخرى أكمل منها، وحينئذ تخلي الفرضية السابقة مكانها لهذه الفرضية الجديدة.

وعلى هذه الصورة يتقدم العلم في اكتشاف العلل والمعلولات والآثار. وهو يكتشف علة الشيء أو معلوله بواسطة التجربة العلمية ثم يخطو نحو علة تلك العلة او معلول ذلك المعلول ويواصل اكتشافاته بمقدار ما تسمح به الامكانيات.

ولما كان العلم معتمدا على التجارب المختبرية فهو يتمتع ببعض المزايا ولكنه مصاب في الوقت نفسه ببعض النقائص.

ومن اعظم ميزات الاكتشافات العلمية انها دقيقة وجزئية ومحدودة. فالعلم قادر على ان يمنح الانسان آلاف المعلومات التي تدور حول موجود جزئي واحد، وهو قادر على ان يملأ كتابا من المعارف وهي تدور كلها حول ورقة شجرة معينة.

والميزة الاخرى للعلم هي انه لما كان يطلع الانسان على القوانين السائدة في اي موجود فهو يمهد السبيل لسيطرة الانسان وتسلطه على تلك الموجودات، ومن هنا ينتشر التصنيع وتنمو التكنولوجيا.

ومع كون هذا العلم دقيقا ومحدودا وجزئيا ويستطيع ان يطلعنا على آلاف المسائل المتعلقة بالامور الجزئية فان دائرته محدودة.

محدودة بأي شيء؟

إنها محدودة بالتجربة.

فهو يتقدم في المجالات التي يمكن إخضاعها عملياً للتجربة.

ولكن أمن الممكن ان نحصر الوجود وابعاده كلها في دائرة التجارب المختبرية؟

فالعلم مثلا يتقدم عمليا الى حد معين خلال بحثه عن العلل والاسباب او عن المعلولات والمسببات، ثم يصل بعد ذلك الى مرحلة ليس له من جواب عليها سوى «لا اعلم».

والعلم يشبه المصباح الذي يشع النور في ظلمة لانهاية لها فهو يضيء منطقة معينة ولا يستطيع ان ينير ماوراء حدود تلك المنطقة.

أتكون للكون بداية ونهاية؟ ام هو لا نهائي من كلتا الناحيتين؟

هذه الأسئلة وأمثالها أهي قابلة للتجربة والاختبار؟ ام ان العالم عندما يصل الى هذه النقطة من البحث فهو ـ بوعي منه او بدون وعي ـ يجلس الى المائدة الفلسفية ويسكت جوعه بها.

والعلم يرى ان الكون يشبه كتاباً قديما قد ضاع اوله وآخره، فلا نعلم شيئا عن اوله ولا عن آخره، ولهذا اصبحت الرؤية الكونية العلمية تبحث عن معرفة الجزء وليس عن معرفة الكل.

والعلم يطلعنا على اوضاع بعض اجزاء الكون، وليس بامكانه ان يتحدث عن شكل وشخصية الكون بأجمعه.

وحال المعرفة العلمية عند العلماء حال المعرفة للفيل عند اولئك الذين راحوا يتحسسونه في الظلام فمن تحسس اذنه تخيل أنها مروحة يدوية، ومن تحسس رجله تخيل أنها عمود، ومن تحسس ظهره تخيل أنه سرير.

وهناك نقص آخر في الرؤية الكونية العلمية يحول دون ان تكون أساسا للأيديولوجية، ويتمثل هذا النقص في أن العلم متزلزل وغير مستقر من الناحية النظرية، أي من ناحية كشف الواقع كما هو موجود، ومن ناحية جلب الإيمان بشكل الوجود وكيفيته.

ويتغير شكل الكون ـ من وجهة النظر العلمية ـ يوما بعد يوم، لأن العلم قائم على أساس الفرضيات والتجارب، وليس قائما على أساس البديهيات العقلية الأولية. والكل يعلم ان للفرضيات والتجارب قيمة مؤقتة. ولهذا كانت الرؤية الكونية العلمية متزلزلة وغير ثابتة ولا يمكن ان تصبح أساساً للإيمان. والإيمان يتطلب أساسا مستقراً وغير متزلزل، ومتصفاً بصفة الخلود.

وتقصر الرؤية الكونية العلمية ـ بحكم محدودية وسائل العلم (الفرضيات والتجارب) ـ عن الجواب عن مجموعة من الأسئلة المهمة في المعرفة الكونية والتي تعتمد الأيديولوجية على الجواب القطعي بشأنها، من قبيل:

من أين جاء هذا الكون؟

وإلى أين هو ذاهب؟

وأي موقع من الكون نحتله نحن؟

أللكون ـ من حيث الزمان ـ أول وآخر ام لا؟

ومن حيث المكان كيف يكون؟

والوجود من حيث المجموع أيتصف بالصحة أم بالخطأ؟

أهو حق أم عبث؟

قبيح أم جميل؟

أهناك سنن ضرورية ولا تتغير هي التي تسود الكون؟

ام لا توجد سنن غير قابلة للتغير؟

والوجود في مجموعه أهو مخلوق واحد حي ذو شعور؟

أم هو ميت لا شعور فيه، ووجود الانسان فيه صدفة واستثناء؟

والموجود أيؤول إلى العدم؟ والمعدوم أيتحول إلى الوجود؟

وإعادة المعدوم أهي ممكنة أم مستحيلة؟

والكون والتاريخ أهما يتكرران بنفسيهما ودون تغيير ولو بعد ملايين السنين؟ (نظرية دوروكور)

والوحدة هي المسيطرة أم الكثرة؟

والكون أهو ينقسم إلى الكون المادي وغير المادي، والمادي لا يشكّل غير قسم صغير من مجموع الكون؟

والكون أهو بصير وتشرف على هدايته قوة عظمى؟

أم هو أعمى ويتخبط في مسيره؟

والكون أهو عادل مع الانسان ويلبي حاجاته؟

والكون أيوجد له رد فعل حسن اورديء تجاه أعمال الإنسان الحسنة أو الرديئة؟

أتوجد حياة خالدة باقية بعد هذه الحياة الزائلة الفانية؟

وكثير من هذه الأسئلة التي من هذا القبيل.

وليس للعلم إلّا موقف واحد تجاه هذه الأسئلة وهو: «لا أعلم»، لأنه لا يستطيع أن يدخلها إلى مجال التجربة؛ انه يستطيع فقط الإجابة عن المواضيع الجزئية والمحدودة، ولكنه عاجز عن إعطاء تصور كلي للكون.

ونوضح هذا الموضوع بمثال من الحياة العادية:

قد يكون هناك انسان يعرف بدقة «حارة» معينة من مدينة طهران، بحيث يستطيع ـ اعتماداً على ذاكرته ـ ان يصف شوارعها وازقتها وحتىٰ بيوتها. والى جانبه انسان آخر يعرف بهذا الشكل «حارة» أخرى من نفس المدينة. وثالث ورابع وخامس يعرفون «الحارات» الأخرى من طهران... بحيث اذا جمعنا كل هذه المعلومات فسوف تتكون لدينا صور واضحة عن كل جزء من اجزاء طهران.

ولكن اذا عرفنا طهران بهذا الشكل أنكون قد عرفناها من كل الجهات؟

أنكون قد ظفرنا بصورة كلية عن طهران؟

مثلا: ما هو شكل طهران في مجموعها؟

أهي مربعة ام بشكل دائرةام مثل ورقة الشجرة؟ وورقة أية شجرة؟

وأية روابط تربط تلك «الحارات» فيما بينها؟

وكيف تكون خطوط عربات السير التي تربط «الحارات» ببعضها؟

وطهران في مجموعها أهي جميلة أم قبيحة؟

كلّا... إننا لم نستطع أن نحيط بهذه الأمور علما.

وإذا أردنا أن نحيط بها علماً ونعرف طهران أهي جميلة أم قبيحة فلابدّ لنا من أن نحلّق بالطائرة في سماء طهران لنلتقط صورة كلية عن المدينة.

ولهذا قلنا إن العلم عاجز عن إعطاء الأجوبة الصحيحة للأسئلة الأساسية واللازمة للرؤية الكونية، أي حول الانطباعات الكلية عن

مجموع الكون وشخصيته.

وبغضّ النظر عن كل ما مرَّ فإنَّ قيمة الرؤية الكونية العلمية قيمة عملية وفنية وليست قيمة نظرية، والذي يصلح ليكون قاعدة للأيديولوجية إنما هو القيمة النظرية وليست العملية.

والقيمة النظرية للعلم هي في أن يكون واقع الكون كما تعكسه مرآة العلم. أمّا القيمة العملية والفنية له فهي أنَّ العلم ـ سواء أكان مبينا للواقع أم لم يكن ـ يمنح الانسان القدرة العملية على الإنتاج.

والفن الصناعي وتكنولوجيا هذا العصر مظهر للقيمة العملية والفنية للعلم.

ومن عجائب العلم في عالمنا اليوم انه بمقدار مازاد من قيمته الفنية والعملية فهو قد قلّل من القيمة النظرية.

والذين ينظرون من بُعد يتخيلون ان تقدم العلم قد جاء من استنارة الضمير البشري، ومن وجود الإيمان والاطمئنان بالواقع كما يعرضه علينا العلم، وقد رافق هذا تقدمه في الجهات العملية التي لا يمكن إنكارها.

بينما الواقع يثبت عكس هذا تماما[٢].

وبما قلناه اتضح أن الأيديولوجية محتاجة إلى لون من الرؤية الكونية المتصفة بالصفات الآتية:

١ـ أن تكون قادرة على الإجابة عن الأسئلة في معرفة الكون والمتعلقة بكل الكون وليس بجزء خاص منه.

---

(٢) من أراد التوسع فليرجع الى كتاب «الرؤية الكونيةالعلمية» تأليف برتراند راسل، الفصل المتعلق بـ «حدود الأسلوب العلمي» الذي يتضمن نفي القيمة النظرية للعلم.

«المؤلف»

٢ـ أن تفرز معرفة ثابتة الأسس وخالدة بحيث يمكن الاعتماد عليها، وليست معرفة مؤقتة وزائلة.

٣ـ أن تكون لما تقدمه قيمة نظرية كاشفة عن الواقع وليست قيمة عملية وفنية صرفة.

ومـمَّـا قلناه يتبين أن العلم ـ مع كل الميزات التي يجمعها من الجهات الأخرى ـ يفتقد هذه الأمور الثلاثة سابقة الذكر.

الرؤية الكونية الفلسفية

إن الرؤية الكونية الفلسفية تفتقد الدقة والتحديد الموجودين في الرؤية الكونية العلمية، ولكن عوضا عن ذلك فإنَّ الرؤية الكونية الفلسفية تتصف بلون من الجزم واليقين لأنها تعتمد على سلسلة من الأصول التي هي:

١ـ بديهية ولا يمكن إنكارها، وهي تتقدم بأسلوب البرهان والاستدلال.

٢ـ عامة وشاملة وهي من أحكام الموجود بما هو موجود.

ولهذا لا نلحظ فيها ذلك التزلزل واللّاثبات اللذين تتصف بهما الرؤية الكونية العلمية، ولا نلحظ فيها أيضا التحديد الذي كان في تلك .

والرؤية الكونية الفلسفية تجيب عن تلك المواضيع التي تشكل القاعدة لأية أيديولوجية.

والتفكير الفلسفي يوضح صورة الكون بشكل عام.

والرؤية الكونية العلمية والفلسفية كلتاهما مقدمة للعمل ولكن بشكلين مختلفين، فالرؤية الكونية العلمية مقدمة للعمل حيث أنها تمنح الانسان القدرة على «التغيير» و«التصرف» في الطبيعة،

وتجعله مسلَّطا عليها بحيث يستغلُّها فيما يحقق آماله ورغباته.

أمّا الرؤية الكونية الفلسفية فهي مقدمة للعمل ومؤثرة فيه من جهة أنها تعين له آتجاه العمل، والطريق التي يختارها الانسان في الحياة. وهي تؤثر في رد فعل الإنسان أزاء الكون، وتعين له مواضيع تفكيره فيما يدور حول الكون، وتضفي لوناً خاصاً على نظرته للوجود والكون. وهي تزود الانسان بفكرة أو تسرق منه فكرة. تعطي حياته معنى، أو تقذف به إلى ساحات العبث والضياع.

ولهذا قلنا إن العلم ليس قادراً على إعطاء الإنسان رؤية كونية تصلح لأن تكون قاعدة لأيديولوجيته. أمّا الفلسفة فهي قادرة على ذلك .

الرؤية الكونية الدينية

إذا اعتبرنا كل إبداءٍ لوجهة نظر كلية حول الوجود والكون رؤية كونية فلسفية مع قطع النظر عن مبدأ تلك الرؤية الكونية ما هو، أهو القياس والبرهان والاستدلال، أم الوحي من عالم الغيب. إذا كان كذلك فلابدَّ من اعتبار الرؤية الكونية الدينية نوعاً من أنواع الرؤية الكونية الفلسفية.

والرؤيتان تعيشان في أفق واحد، بخلاف الرؤية الكونية العلمية.

أمّا إذا لاحظنا مبدأ المعرفة فإنَّ الرؤية الكونية الدينية والرؤية الكونية الفلسفية نوعان مختلفان.

وفي بعض الأديان ـ كما في الاسلام ـ اتخذت المعرفة الدينية للكون ـ في صميم الدين ـ لوناً فلسفياً، أي طريقاً استدلالياً، وهذا يعني أن المواضيع التي آستعرضها ذلك الدين معتمدة على العقل والاستدلال

والبرهان، ولهذا كانت الرؤية الكونية الإسلامية رؤية كونية عقلية وفلسفية في الوقت نفسه.

ولهذه الرؤية ميزتا الرؤية الكونية الفلسفية وهما: الثبات والخلود، والأخرى العموم والشمول. وبالاضافة الى هذا فانها تتمتع بميزة تفتقدها الرؤيتان الكونيتان: العلمية والفلسفية، وهي القداسة التي تهيمن على اسس تلك الرؤية.

والايديولوجية تتطلب ايمانا، وعندما يتعلق الايمان بمبدأ فانه يوفر له فرصة الاعتقاد بالخلود وعدم تغيير الاصول مما لم يتوفر في الرؤية الكونية العلمية، وبالاضافة الى هذا فانه يوفر له الشعور بالاحترام الى حد القداسة.

ويتضح من هذا أن الرؤية الكونية لا تصبح اساساً للأيديولوجية ولا أرضيّة للإيمان إلّا إذا كانت ذات صبغة دينية.

ونستنتج من كل مامر أنّ الرؤية الكونية لا تكون أساسا للأيديولوجية إلّا في حالة واحدة وهي تلك الحالة التي تجمع فيها بين سعة التفكير الفلسفي وعمقه، وحرمة الاصول الدينية وقداستها.

ما هو المعيار في الرؤية الكونية الجيدة ؟

الرؤية الكونية الراقية هي تلك التي تجمع هذه الصفات:

١ـ إمكان إثباتها بالاستدلال. وبعبارة اخرى:

أن تكون محمية من ناحية العقل والمنطق.

٢ـ أن تعطي الحياة معنى، وتجتث من الأذهان فكرة العبث في الحياة وفكرة أن كلّ الطرق والوسائل تؤدي إلى الضياع والفراغ.

٣ـ أن تكون قادرة على إحياء الآمال وتفجير الحماس وبعث الطموح.

٤ ـ أن تكون قادرة على منح الأهداف الإنسانية والاجتماعية؛ ألحرمة والقداسة.

٥ ـ أن تخلق الالتزام، وتحقق الشعور بالمسؤولية.

فمنطقية الرؤية الكونية توفر لها فرصة الموافقة العقلية، وتفتح أمامها أبواب العقول، وترفع من طريقها الإبهام والظلمة التي هي من الموانع الضخمة عمليا.

وأمّا قدرتها على إحياء الآمال فإنّها تمنحها الجاذبية والقدرة على الاستقطاب، وتبعث في أوصالها القوة والحرارة.

أمّا سريان القداسة من الرؤية الكونية إلى الأهداف المبدئية فهو يدفع الأفراد ليتجاوزوا ذواتهم ويضحوا في سبيل تلك الاهداف. ومادام المبدأ غير قادر على إضفاء القدسية على أهدافه، وعلى إيجاد روح التضحية في الأفراد بالنسبة إلى تلك الأهداف، فإنه سوف يبقى عاجزاً عن ضمان التنفيذ.

أمّا المسؤولية والالتزام في الرؤية الكونية فإنّها تغرس الشعور بالمسؤولية تجاه ذاته ومجتمعه في أعماق ضميره.

الرؤية الكونية القائمة على التوحيد

ان كل هذه الميزات التي تجمعها الرؤية الكونية الجيدة تتوفر في الرؤية الكونية القائمة على التوحيد، ولا توجد رؤية غيرها جامعة لكل هذه الخصائص.

وهذه الرؤية التوحيدية تعني ادراك أن الكون قد أُبدع بإرادة حكيمة واحدة، وأن نظام الوجود مشيد على أساس الخير والجود والرحمة وإيصال الموجودات الى كمالاتها اللائقة بها، وتعني أيضا أن للكون «قطباً واحداً» و«محوراً واحداً». وتعني أنَّ ماهية الكون